المحاضرة 02: تاريخ القرآن

أولا: كيفية تلقي الوحي

لقد أصلت السنة النبوية الصحيحة هيئات الوحي جبريل -عليه السلام- بالقرآن على الرسول ﷺ.

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها- قالت: " إن الحارث بن هشام -رضي الله عنه- سأل رسول الله ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس –وهو أشده علي- فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول"[1].

ولقد أورد علماء القرآن الروايات التي تثبت موضوع تلقي الوحي، والتي تنص على أن وحي الله تعالى لرسوله كان على ثلاث هيئات وهي :

1- الهيئة الأولى: صلصلة الجرس (دوي هائل) فإذا سمع الرسول هذه الصلاصل سكت وأدرك أنه الوحي ... وكان الصحابة الذين يجالسونه يسمعون دويا كدوي النحل، لكنهم لا يفهمون من أمر ذلك الدوي شيئا.

وهذه الهيئة كان يتمثل بها الوحي جبريل عليه السلام عند نزوله بالقرآن على الرسول ﷺ، وبهذه الطريقة نزل القرآن كله، وهذه الحالة أشدها على الرسول ﷺ، وهي تصاحبها الشدة، والعنت، والتفصد بالعرق، مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق: " أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي".

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها- قالت: " ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقا"[2].

ومعنى الصلصلة عند (الخطاب) صوت متدارك يسمعه، ولا يتشبته أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد[3].

وقال السيوطي يصف الصلصلة: "وقيل هو صوت خفق أجنحة الملك، والحكمة في تقدمه أن يفرغ

1- البخاري، **صحيح البخاري**، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 2002، (رقم الحديث02).

2 - ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة، 2015، ص26.

3- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ط1،مؤسسة الرسالة، 2010، بيروت، ص 44.

سمع للوحي، فلا يبقى فيه مكانا لغيره"[1].

وتثير الصلصلة في نفس الرسول ﷺ اليقضة والانتباه حتى يعي بكل قواه الإدراكية ما سيلقيه عليه الملك جبريل عليه السلام من قرآن. وتؤصل الآيات القرآنية شدة هذه الحالة من الوحي. قال تعالى﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: 05).

***حديث بدء الوحي:**

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ (وَهُوَ التَّعَبُّدُ) اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: "إقرأ"، قَالَ " مَا أَنَا بِقَارِئٍ ". قَالَ " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:" اقْرَأْ". قُلْتُ :"مَا أَنَا بِقَارِئٍ". فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:" اقْرَأْ". فَقُلْتُ :"مَا أَنَا بِقَارِئٍ". فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾. "فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رضى الله عنها- فَقَالَ " زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي ". فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ " لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ". فَقَالَتْ خَدِيجَةُ :"كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ". فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ (وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى) ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ . وَكَانَ إمرءا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى

1- نفس المرجع، ص 44.

ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ". قَالَ نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَتْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْىُ[1].

وحالة صلصلة الجرس، وباتفاق العلماء هي الحالة الوحيدة التي نزل بها القرآن الكريم كله، حيث لم ينزل بحالة أو هيئة أخرى[2].

2- الهيئة الثانية: التمثل بالبشر:

مصداقا لقوله ﷺ: " وأحيانا يتمثل لي المَلَك رجلا، فيكلمني، فأعي ما يقول".

وهذه الحالة أخف هيئات الوحي، حيث يحصل التأنس له عندما يقابل جبريل -عليه السلام- على هيئة بشر، ويراه، ويحادثه كإنسان مثله، مصداقا لقوله ﷺ: " وهو أهونه عليّ ". ولكن لا يعني هذا أن جبريل -عليه السلام- كان يتخلى عن روحانيته.

وتذكر الروايات الصحيحة أن جبريل –عليه السلام- كان يتمثل أحيانا ببشر معروف من الصحابة، مثل الصحابي (دحية الكلبي)، وأحيانا يتمثل ببشر غير معروف، كما ورد في حديث عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: "يا محمد أخبرني عن الإسلام "، فقال له: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)، قال: "صدقت "، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: " أخبرني عن الإيمان " قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: " صدقت "، قال: " فأخبرني عن الإحسان "، قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: " فأخبرني عن الساعة "، قال:(ما المسؤول بأعلم من السائل)، قال: " فأخبرني عن أماراتها "، قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان) ثم انطلق فلبث مليا، ثم قال: (يا عمر، أتدري من السائل؟)، قلت: " الله

1- الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، دار ابن كثير،دمشق، 2017 ، رقم8.
2- غازي عناية، المرجع السابق، ص62.

ورسوله أعلم "، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) [1]. ويتفق العلماء أنه لم ينزل قرآن قط بهذه الهيئة.

3- الهيئة الثالثة: الهيئة الحقيقية لجبريل –عليه السلام- :

بمعنى بروز جبريل في صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها : ومن تلك الصور مجيء جبريل عليه السلام في صورته الحقيقية أي في صورة ملك كريم له أجنحة. لكن لم يحدث هذا غير مرتين على مدى ثلاث وعشرين عاما، وهي الفترة التي استغرقها نزول الوحي؛ الأولى عندما طلب النبي ﷺ من جبريل-عليه السلام- أن يظهر له في صورته الحقيقية، فبرز له بعدما أذن الله له بذلك، والمرة الثانية ليلة المعراج، عندما عرج برسول الله ﷺ من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى... وكان جبريل في صورته الملكية الحقيقية هو دليل تلك الرحلة العلوية المباركة، مصداقا لقوله ﷺ: في حديث جابر بن عبد الله، عن أبي سلمة بن عبد الرحمان قال: " سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: يا أيها المدثر ، قلت: أو إقرأ باسم ربك، قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ قال: إني جاورت بحراء، فلما قضيت جواري نزلت، فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي، وعن يميني وشمالي، ثم نظرت إلى السماء فإذا هو (يعني جبريل)، فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثروني[2]، فأنزل الله: ﴿يا أيّها المدّثّر. قم فأنذر﴾ (المدثر: 1-2)

فقوله ﷺ: " فإذا هو " يعني أنه عرفه، وأنه الملك الذي جاءه لأول مرة في غار حراء، وأنزل عليه أول النزول القرآني، وهو الخمس الآيات الأولى من سورة العلق. وفي رواية أخرى أن الرسول ﷺ رأى جبريل –عليه السلام- على هيئته الحقيقية أي سورة ملك كريم له أجنحة، يملأ الأفق مابين السماء والأرض، فأخذت الرسول الهيبة، والرجفة، وفي الرواية أنه كان يجلس على كرسي يملأ الأفق مابين السماء والأرض [3].

ومن الثابت عند العلماء أن الرسول ﷺ رأى جبريل مرتين على هيئته الحقيقية، رآه مرة عندما نزل من غار حراء، كما في حديث جابر، ورآه مرة أخرى ليلة الإسراء والمعراج، عندما عرج برسول الله

1- الإمام مسلم، **صحيح مسلم**، ط1، دار طيبة، 2006، القاهرة، 299/1.
2+ البخاري صحيح البخاري، مرجع سابق، الرقم 4924.
3- البخاري، مرجع سابق، رقم 4925.

ﷺ من بيت المقدس إلى سدرة المنتهى... وكان جبريل في صورته الملكية الحقيقية هو دليل تلك الرحلة العلوية المباركة، وبهذه الهيئة لم ينزل القرآن قط.

وباتفاق العلماء لم ينزل قرآن في الهيئة الثانية، أو الثالثة[1].

أما تصورنا نحن البشر لهذا الوحي فإنه متعذر لأنه حالة فوق إدراك الحواس، وفوق مستوى العقل، فهو اتصال من الله العلي القدير بمن على استعداد فطري خاص، جسمي وروحي وفكري، لتلقيه... إن حقيقة الوحي ثابتة في النصوص القطعية والأحاديث الصحيحة وفيما جرى للأنبياء السابقين .. فلا غرو أن يكون حقيقة علمية يطمئن إليها أيّ عقل سليم.

ثانيا: كيف نزل القرآن؟

النزول في اللغة[2] الحلول، نقول نزل فلان بالمدينة أي حل بها؛ والنزول كذلك : الانحدار، نقول : نزل من علوّ إلى سفل، وجاء في القرآن : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (الرعد : 17) والمعنيان يقتضيان الجسمية والمكانية، ولا مجال لتحققهما بالنسبة لكلامه تعالى، وعلى هذا يكون المراد بنزول القرآن معناه المجازي، لأن المراد به الإعلام والإخبار به، وإنما اختيرت مادة النزول من أجل التنويه بشرف هذا الكتاب الجليل، نظرا لما توحيه هذه المادة من علوّ صاحب هذا الكتاب علواّ كبيرا.

يؤصل العلماء أن للقرآن الكريم تنزلان[3]:

التنزيل الأول: جملة واحدة من عند الله، أو من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا في ليلة القدر في شهر رمضان، ودليلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ (البروج : 21-22) واللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ.فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ. لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الواقعة : 77-78-79)أي أن القرآن محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل ... وأن كلّ ما قضاه الله تعالى هو في هذا اللوح الذي لا يدرك البشر طبيعته لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله العلي القدير بعلمه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر : 1) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ (الدخان : 3)

وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة : 185) وقوله

1- غازي عناية، مرجع سابق، ص 64.

2- إسماعيل إبراهيم، **معجم الألفاظ والأعلام القرآنية**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968، ص227.

3- محمد علي الصابوني، **التبيان في علوم القرآن**، ط3، مكتبة رحاب، الجزائر، 1986، ص 29.

كذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ **(الكهف: 1) ومحل الشاهد هنا في كون القرآن أنزل جملة واحدة هي لفظة أنزلناه التي تدل على العموم.**

أما من السنة المشرفة: فعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: " أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في أكثر من عشرين سنة. ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ **(الفرقان: 33).**

وقد استدل العلماء من هذه الآيات على نزول القرآن جملة، وذلك من اللفظ (أنزل) حيث يفيد العموم، في حين يفيد اللفظ (نزل) التفرق.

ومن الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك:

عن أبن عباس –رضي الله عنه- قال : " أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى السماء الدنيا جملة واحدة ثم أنزل نجوما (منجما أي مفرقا). أخرجه (الطبراني)[1].

وقال (القرطبي)في تفسيره[2] " ولا خلاف في أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ".

وقال العلامة(السيوطي) : "ولولا أن الحكمة الإلهية إقتضت وصوله إليهم منجما بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله سبحانه باين (خالف) بينه وبينها، فجعل له الأمرين: إنزاله جملة، ثم إنزاله مفرقا، تشريفا للمنزل عليه[3] .

❖حكمة إنزال القرآن جملة:

يورد الإمام(السيوطي) في كتابه "الإتقان" أقوال العلماء في حكمة نزول القرآن جملة وهي:

1- **تعظيم شأن القرآن.**

2- **تعظيم شأن المنزل عليه، وهو النبي** صلى الله عليه وسلم.

3- **إعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزل على خاتم الرسل لأشرف الأمم.**

4- **تعظيم شأن الأمة المحمدية.**

1- السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ص 41.

2- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ط1، ج2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006، ص297.

3- السيوطي، مرجع سابق، ص 42.

5- تعظيم شأن بني آدم عند الملائكة[1].

التنزيل الثاني: من بيت العزة في السماء الدنيا منجما حسب الوقائع والأحداث أي مفرقا على قلب الرسول ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة، وهي من حين بعثته إلى حين وفاته ﷺ.

ودليلهم من القرآن قوله تعالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ (الإسراء: 106) وقوله كذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان: 32).

وقد استدل العلماء من هذه الآية على النزول المنجم من اللفظ نزل وهو يفيد التفرق في النزول لا الجملة.

أما دليلهم في السنة : فعن أبن عباس- رضي الله عن- قال : بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثم أُمر بالهجرة عشرة سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة (رواه البخاري).

قال الإمام (الشعبي): إن المراد بنزول القرآن في ليلة القدر وفي ليلة مباركة وفي شهر رمضان هو ابتداء النزول على المصطفى ﷺ ثم تتابع نزوله بعد ذلك متدرجا مع الوقائع والأحداث قرابة ثلاث وعشرين سنة.

التنجيم : حقيقته .. الغاية منه

أولا: معنى التنجيم

أ – لغة : نجم الشيء ينجم بالضّمّ- نجوما : طلع وظهر ؛ وفي الحديث : هذا إبّان نجومه : أي وقت ظهوره؛ وكلّ ما طلع وظهر فقد نجم، وقد خصّ بالنجم منه (من النبات) ما لا يقوم على ساق ، كما خصّ القائم على ساق من النبات بالشجر ؟ قال (أبو إسحاق)في تفسير قوله تعالى﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمان :6): "جائز أن يكون النجم ها هنا ما نبت على وجه الأرض وما طلع من نجوم السماء ، ومعنى سجودهما : دوران الظلّ معهما.." كما أقسم الله تعالى بالنجم ، وجاء في التفسير أنه الثريا.. والنجم أيضا نزول القرآن نجما بعد نجم ، فكان تنزل منه الآية والآيتان . قال أهل اللغة : النجم بمعنى النجوم، والنجوم تجمع الكواكب كلها ، لكن النجم خصّ الثريا فصار علما[2] .

1-- المرجع نفسه، ص42.

2- ابن منظور: **لسان العرب**، مرجع سابق، ج14، دار صادر بيروت، ط3، ص، 203، مادة: نجم.

هذا ونضيف : أن كلمة النجم. جمع : مفرده: نجمة ولها في العربية اشتقاقات واستعمالات و معان كثيرة مختلفة. ومن ذلك ما جاء في حديث سعد : والله لا أزيدك على أربعة آلاف منجمة: فتنجيم الدّين : هو أن يقدر عطاؤه في أوقات معلومة متتابعة .

ب- إصطلاحا : هو تنزيل القرآن الكريم مفرقا على دفعات ومراحل .. كما يدل على ذلك الرد الجوابي على اليهود الوارد في قول الله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ﴾، (أي كذلك أنزلناه مفرقا) ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: 32-33)

فان الله تعالى هنا لم يكذب اليهود فيما ادعوا من نزول الكتب السماوية السابقة جملة واحدة ، وأكد نزول كلامه في وحيه الخاتم منجما وفق مراحل ودفعات لحكمة قدرها سبحانه وتعالى في علمه المطلق.

ثانيا: الحكمة من نزول القرآن منجما

لقد باين الله من الله بين الكتب السماوية السابقة، وبين القرآن الكريم من حيث كيفية الإنزال. فقد أنزلها جملة واحدة، وأنزل القرآن منجما، مفرقا، لأسرارعديدة، وحكم جليلة، عرفها العالمون، وغفل عنها الجاهلون، ولا ريب أن منزله - جل شأنه و عظم في علاه- قدّر وراء ذلك مقاصد وحكم وغايات استنبط علماء القرآن ما يمكن استنباطه عقلا، ويمكن إجمالها فيما يلي[1]:

1- تثبيت فؤاد الرسول ﷺ **وتقويته قلبه:**

مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ االَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: 32). يعني لتقوية قلبك، فإنّ الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه.

وقد كان نزول الوحي متواصلا ملاذا للنبي ﷺ من كل ضيق ومواساة له وتقوية لعزيمته.

فلو أن القرآن نزل كله عليه جملة واحدة ، لكان لانقطاع الوحي عنه أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة .. وهذا المعنى هو ما أسماه القرآن بتثبت الفؤاد ...

2 - تسهيل الحفظ : فقد كان رسول الله ﷺ لا يقرأ ولا يكتب ، فليس لديه من وسائل الضبط ما يحفظ به كلّ ما ينزل عليه سوى وسيلة التكرار والحفظ، فكان لابد من نزول الآيات بتدرج، وخلال فترات متقطعة من الزمن حتى يكون السبيل إلى حفظه ووعيه أيسر وأسهل ، وبالرغم من ذلك فإنه

1- غازي عناية، مرجع سابق، ص 107 وما بعدها بتصرف.

ﷺ كان من عادته إذا نزلت عليه الآية أو الآيات أن يأخذ في تكرارها ويستعمل في محاولة حفظها و يظل يحك لسانه خشية أن تتفلت من حفظه ، إلى أن نزل عليه قوله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة 16-19)

ثم طمأنه بعد الله ذلك بقوله : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾.(الأعلى 6) وهذه حكمة أخرى من نزول القرآن الكريم منجّما.

- 3 - التدرج في التشريع ومراعاة الأولويات في التربية والتعليم وانتزاع العقائد الفاسدة : احتوى القران الكريم على أصول التشريع والأحكام

سواء ما تعلق منها بالعبادات أو المعاملات المدنية ، أو الأحوال الشخصية، أو العقوبات أو النظم الدستورية والمالية، أو العلاقات الدولية ..

وكان العرب قبل الإسلام متفلتين من كل قيد ،لا يخضعون لقانون ولا يرتبطون بأي تنظيم ، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة في طفرة مفاجئة، إلى التقيد بعامة أحكام الإسلام ونظمه وقوانينه .

من أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التربوية التي لا بد منها ، وهي وسيلة التدرج في نقلهم من حياة الفوضى والتفلت إلى حياة النظام والتقيد بالمعايير التي لابد منها في المجتمع الصالح . فنزلت أولا الآيات المتعلقة بالعقيدة ودلائلها، حتى إذا آمن الناس وثابوا إلى عقيدة التوحيد ، نزلت آيات الحلال والحرام وعامة الأحكام والتكاليف والتشريعات في مهل وتدرج .

يروى الإمام (البخاري) في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة– رضي الله عنها- قالت :" إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصّل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا : لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل : لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا ... وهكذا.." لكن عندما استقرت العقيدة في النفوس كانت الاستجابة الطوعية للتكاليف و الأحكام.

يقول الشيخ (عبد العظيم الزرقاني) في كتابه "مناهل العرفان ": " نرى أن الإسلام قد مهّد بالعقائد ... فقد بدأ بفرضه للصلاة قبل الهجرة، وثنّى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة، ثم ختم بالحج في السنة السادسة منها ، وقد كان الإسلام في انتهاج هذه الخطّة أبعد نظرا،وأهدى سبيلا وأنجح تشريعا "[1] .

1- الزرقاني ،**مناهل العرفان في علوم القرآن**، جـ 1، دار السلام، القاهرة، 2015، ص50.

❖ الإستفادة من نزول القرآن منجما في التربية والتعليم[1]:

تعتمد العملية التعليمية على أمرين أساسيين: مراعاة المستوى الذهني للطلاب،

وتنمية قدراتهم العقلية والنفسية والجسمية بما يوجهها وجهة سديدة إلى الخير والرشاد.

ونحن نلحظ في حكمة نزول القرآن منجما ما يفيدنا في مراعاة هذين الأمرين ، فإن نزول القرآن الكريم تدرج في تربية الأمة الإسلامية تدرجا فطريا لإصلاح النفس البشرية ، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيتها، وتكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، وأتت أكلها الطيب بإذن ربها لخير الإنسانية كافة.

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبر معانيه، والعمل بما فيه.

وبين نزول القرآن في مطلع الوحي بالقراءة والتعليم بأداة الكتابة هو: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ **(العلق: 1-5)**

ونزول آيات الربا والمواريث في نظام المال، أو نزول آيات القتال في المفاصلة التامة بين الإسلام والشرك ، بين ذاك وهذا مراحل تربوية كثيرة لها أساليبها التي تلائم مستوى المجتمع الإسلامي في تدرجه من الضعف إلى القوة ، ومن القوة إلى شدة البأس.

والمنهج الدراسي الذي لا يراعى فيه المستوى الذهني للطلاب في كل مرحلة من مراحل التعليم وبناء جزئيات العلوم على كلياتها والانتقال من الإجمال إلى التفصيل، أو لا يراعي تنمية جوانب الشخصية العقلية والنفسية والجسمية منهج فاشل لا تجني منه الأمة ثمرة علمية سوى الجمود والتخلف .

والمدرس الذي لا يعطى طلابه القدر المناسب من المادة العلمية فيثقل كاهلهم ويحملهم ما لا يطيقون حفظا، أو فهما أو يحدثهم بما لا يدركون، أو لا يراعي حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلُقي، أو يفشو من عادات سيئة، فيقسو ويتعسف، ويأخذ الأمر دون أناة وروية، وتدرج وحكمة ، المدرس الذي يفعل ذلك مدرس فاشل كذلك، يحوّل العملية التعليمية إلى متاهات موحشة، ويجعل غرف الدراسة قاعات منفرة .

وقس على هذا الكتاب المدرسي، فالكتاب الذي لا تنتظم موضوعاته وفصوله، ولا تتدرج معلوماته من السهل إلى الصعب، ولا تترتب جزئياته ترتيبا محكما منسقا، ولا يكون أسلوبه واضحا في أداء المعنى المقصود، كتاب ينفر الطالب من قراءته، ويحرمه من الاستفادة منه.

والهدى الإلهي في حكمة نزول القرآن منجما هو الأسوة الحسنة في صياغة مناهج التعليم، والأخذ بأمثل الطرق في الأساليب التربوية بقاعة الدرس، وتأليف الكتاب المدرسي.

1- مناع القطان، **مباحث في علوم القرآن**، ط7، مكتبة وهبة، القاهرة، 1995، ص112.

4- مسايرة الوقائع والحوادث: هذه الحكمة تمثل واقعية هذا الدين.. فقد كان القرآن يمس واقع الحياة بأحداثها، ويحدث فيها تغيرا حيا يرتبط بحياتهم الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، بل جعل بعض الآيات تنزل مرتبطة ببعض أسباب النزول، حتى يأخذ من الأحداث والوقائع التي تمر بهم دروسا قوية مؤثرة في حياتهم.

فقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معظم الأحكام في كتابه الخاتم جوابا على أسئلته أو حلا لمشكلات واقعة بالفعل، كي تكون أوقع في النفس وألصق بالحياة، وتلك وسيلة تربوية ظاهرة لا تحتاج إلى مزيد بيان ، وإنما سبيل ذلك أن تتدرج هذه الأحكام وآياتها في النزول تنتظر منا سباتها وظروفها.. ولذلك نجد أن الكثير من آي القرآن إنما نزل جوابا على سؤال أو حلا لإشكال[1].. ومن ذللك مثلا : قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ (البقرة: 222).

وقوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ (البقرة : 220) وقوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ (الأنفال: 1)

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾(البقرة: 221)

فهذا من النوع الذي نزل حل لمشكلة قائمة نفهم من ذلك أنه كان كلما جدّ جديد، وهو عند الله مكتوب محسوب مقدر .. نزل من القرآن ما يناسبه ، والحوادث التي عاشها المسلمون عديدة ومتنوعه فترة نزول القرآن، فكانت الآيات أجوبة تفصيلية مقنعة ، تصحح مسار المسلمين وترشدهم.

5- مراعاة النسخ: اقتضى التدرج بالناس في التشريع أن يكون ثمة ناسخ و منسوخ، إذ رب حكيم كانت المصلحة والرحمة بالناس تقتضي أخذهم به على مراحل، كتحريم الخمر مثلا، فقد اكتفى القرآن في أول الأمر ببيان أن أضراره أكثر من فائدته، وذلك في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (البقرة: 219)

حتى إذا استقر في النفوس ذلك، نزلت آية جديدة تنهي الناس عن السكر في أوقات الصلاة، وذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء 43)

وهو كما نرى تحريم جزئي في فترات متقطعة من الزمن ، فلما أخذ الناس أنفسهم بذلك واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الاوقات التي ورد فيها النهي .. نزلت آية جديدة قاطعة تحرمه تحريما كليا

1- غازي عناية، مرجع سابق، ص121.

جازما.. وذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ **(المائدة :90-91)**

ولا ريب أن كل مرحلة من هذه المراحل السابقه إ نما هي نسخ لما قبلها، وتصعيد إلى طور جديد نحو تكامل التشريع واستقراره... وهذا لا يتم إلاّ بنزول القرآن منجما[1].

6- إثبات المصدرية الإلهية للقرآن : فقد كان القرآن ينزل متفرقا فيقول النبي ﷺ ضعوا هذه الآية في الموضع كذا، وتلك في موضع كذا[2]،إذ كانت تنزل العشر الآيات دفعة واحدة أو جزء من آية فقط... والقارئ عندما يقرأ القرآن يجده -بعد أن اكتمل- محكم السرد، مترابطا منظما... وهذا لا يستوي لإنسان، لا تأليفا ولا معنى ولا لفظا... إنه كلام الله تعالى، وهذا دليل قاطع على إعجازه وأنه من عند الله...

ومثال ذلك سورة المزمل، وهي سورة مكية باستثناء الآية الأخيرة منها فهي مدنية، ومع طول الفاصل الزمني، واختلاف طبيعة القرآن المكي والمدني – مثل الطول والقصر – فإن المعنى الذي عرضت له هذه الآية متصل بصدر السورة، ومنسجمة مع معمارها العام. ومطلعها : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ﴾ **(المزمل: 20) فقد نزل القرآن منجما ولكن في ترابط معجز، وتفرقت أسباب آياته، ولكنه ألف بينها، فكان متكامل النسج محكما.**

هذه هي أهم الحكم من نزول القرآن منجما باختصار وتركيز والله أعلم[3].

1- غازي عناية، مرجع سابق، ص 145.

2- الامام أحمد، مسند، **الامام أحمد**، ج1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2009، ص69.

3- غازي عناية، مرجع سابق، ص 146.